مساكن الطلبة الجامعيين

وحاجتنا إلى إيجادها

بقلم الأستاذ صلاح الدين الشريف المحامى

ليس ألزم لجامعتنا الناشئة وإخواننا الجامعيين ، ولا أعون على دعم قوائم الروح الجامعى الوليد ، فى فترة تكوننا العلمى العالى ، من جامعة تستند كلياتها إلى طلبة خلقتهم بيئة المسكن الراقى واطمأنوا إلى لون من الحياة الاجتماعية الطيبة الطاهرة ، يحيونها بعد رهق التحصيل وعناء الدرس ، بيئة مثلى يحق لنا أن نعتد بها اعتدادنا بما تضمه الجامعة من كليات ، وما تحويه الكليات من قاعات فسيحة وأبهاء رحبة وعمد رائعة وحجر منظمة ومداخل وجيهة ونقوش جميلة وشمس ساطعة وأهوية سارية ، وعندئذ نحس بذلك التجاوب الاجتماعى الموموق بين بيئة السكن وبيئة الدرس ، بين حياة الصباح الشريفة المشرقة وحياة فى المساء لا يصح أن تقل عن حياة الصباح كما لا وإشراقا وحيوية .

فالحياتان حلقتان مشتبكتان ، والصلة بينهما وثيقة لا انفصام لها ، والخريج الجامعى هو حقا ثمرة تفاعل الحياتين جميعا ، أو هو ضحية الذبذبة وفقدان الانسجام بينهما .

وبعد فالمشروع قديم والحاجة إليه محسوسة وغير منكرة ، وسبل التنفيذ درست دراسة وافية وما يحتاج إليه من مال وما يلزمه من نفقة ليس يصعب على ولاة الأمر رصده فى الميزانية بعد تقسيمه مثلا ، على سنوات مالية ثلاث ، إن لم تكن أقل لا أكثر ، فلم يبق أمامنا من عقبة غير البطء الذى اعتدناه فى التنفيذ باسم التريث والتمهل .

إن نظرة عابرة ، وليست فاحصة ، نلقيها على لون الحياة التى يحياها السواد الأعظم من إخواننا الجامعيين ، أولئك الذين قذفت بهم بلدان الريف ودساكره إلى عاصمة القطر فى طلب التحصيل والعلم ، كافية حقا لأن تقنعنا بأننا — كشعب متحضر يحب الرقى ويدعو اليه — نأثم أقبح الإثم فى حق أجيالنا الناشئة ، من أبناء اليوم ورجال الغد الحافل المنشود . إنها لحياة مريضة مفككة لاهية أبعد ما تكون عن استقرار يؤهل لتحصيل قوى ، أو نظام محبوك يعين على حياة جاهدة مضنية قوامها الدرس والطلب .

إننا نخطئ أبين الخطأ إذا زعمنا أن من بين طلبة الجامعة عددا يذكر ، فى طوقه أو فى طوق أولياء أمره ، أن يوفروا لهم أسباب حياة معتدلة يطمئنون فى ظلها إلى مواصلة عملهم ومتابعة إنتاجهم ، بعيدين عن طوارئ العيش المزعزع أو مفاسد البيئة الملوثة ، إذ

الحقيقة أن الغالبية من الطلبة محدودة الدخل تضطرها ظروف المادة إلى أن تحيا ، طيلة فترة التحصيل والغربة ، حياة هي أبعد ما تكون عن الراحة والطمأنينة والاستجمام المادى والمعنوى الذى يهيئهم للتفتح العقلى والبدنى . ولسنا نحتاج فى التدليل على هذا الواقع الصراح إلا إلى أمر واحد يتكرر فى كل عام ويضج له أولياء أمور الطلبة بالشكوى ، وهو اضطرار كليات الجامعة سنويا إلى فصل عدد كبير من طلبتها الذين يعجزون عن تسديد مصاريف الدراسة ، ولو عرفت أن ولى أمر الطالب وكذلك الطالب نفسه يبذلان المستحيل فى سبيل توفير المال اللازم لسداد الأقساط ومصاريف الكتب والدفاتر ولوازمهما ، لما شككت فى أن هذا الجهد المبذول فى سبيل سداد الأقساط خشية الفصل والحرمان من اختبارات آخر العام إنما يتم على حساب الجانب الآخر من حياة الطالب الجامعى حتى ليضطره الحال فى هذا الجانب إلى شدة الاقتصاد ولكن على حساب جسمه وعقله وملبسه ومعنويته وجملة حاله . ومن ثمّ هذا الهزال الملح والسقم البادى على وجوههم الشاحبة وأبدانهم الضاوية ، وكأنى بها تصرخ فى غير ما انقطاع : الغذاء المغنى ، المسكن المريح ، الرياضة اللازمة المنشطة للعضلات المقوية للأعصاب ، وهى لعمرى عضلات وأعصاب حطمها الإجهاد تحطيما .

لست أحتاج إلى أيمان مغلظة لأؤكد لقارئ هذه السطور ، أننى شاهدت طيلة تحصيلى الجامعى نفرا كبيرا من إخوانى الجامعيين يعيشون فى الأنحاء الريفية المجاورة للجامعة حياة القرية فى وسط أضواء المدينة ، وليتها القرية النموذجية فى مساكنها ونظامها ، ولكنها تلك القرية المتخلفة عن عهود الجمود والفقر والتدهور ! حجر ضيقة قابضة معتمة رطبة وغذاء تافه محدود ثم جلد صابر على توفية الدرس حقه من العناية المجهدة والوفاء المرهق ، إنها لفئة نبيلة قانعة ، ترضى من زمن شبابها بالحرمان لتأمل منه لكهولتها حياة مجيدة عالية !

أما أبناء الموسرين من أغنياء الريف وعددهم محدود ، فهؤلاء يولون وجوههم شطر " البنسيونات " والحجر المفروشة لقاء أجور لا يستطيعها غير هؤلاء . وهى إن كانت تحوى حقا أسباب الراحة اللازمة للسكن الكامل أو الشبيه بالكامل ، لا تخلو من منغصات أو شوائب تأتى على محاسنها وتسلبها صفة المسكن الطيب والمأوى الراق المصون . وهى منغصات وشوائب كثيرة أنكرها تلك الريبة اللازبة التى تقترن باسم " البنسيون " ، وجو الاستباحة والجماح الذى يستشعره طالب زايل مراحل الضغط فى ظل الوالدين خلال مرحلتى التعليم الابتدائى والثانوى ، وبات يتلهف على سويعات " الحرية " وسط الأضواء الخاطفة واللهو المبذول بعيدا عن العين الرقيبة واليد الزاجرة والنصيحة الهادية ، ناهيك بهذه الضوضاء المتصلة والضجيج المستمر وما يخلفه للأعصاب المتعبة خلال الدراسة اليومية من رهق وتفوّر وتوتر ، لأن هذه المساكن تقع عادة فى سرة المدينة العاجة الصاخبة .

وهل من عجب بعد هذه الحياة المضنية المفككة ، أن يصبح الجامعيون فى نهكة بدنية ملازمة ، ووعكة مرضية دائمة ، وخمود عقلى ظاهر ، ويحسون كراهية للألعاب الرياضية واصحة ، حتى لتفيض تقارير أطباء الجامعة بمر الشكوى من تلك " الأنيميا " الخبيثة و " البلهارسيا " الموبقة وأمراض النظر وضعفه من جراء سوء الاضاءة وعدم كفايتها فى مساكن الغالبية منهم ، وغير أولئك من أمراض وأسقام ؟ أليس من المؤلم أن يسفر الكشف الطبى على الطلبة المتقدمين للتدريب العسكرى عند بدء ادخاله فى الجامعة ، عن نتائج مؤلمة تدل على عدم صلاحيتهم لحياة عسكرية مجدية . حقا لا زالت للمثل التقليدى القديم قيمته " العقل السليم فى الجسم السليم " فما يخسره الوطن من طاقة الانتاج المناسب فى فترة الشباب ، فترة التفتح والاكتمال والازدهار ، يرجع إلى تلك الحياة الشاحبة الذاوية التى يحياها الجامعيون فى مساكنهم التافهة . ولعمرى ما أمر التناقض بين فترتين زمانيتين فى حياة الجامعى اليومية ، فترة الصباح وسط القاعات المشمسة المهواة والنظافة العامرة والنظام السائد والفخامة البادية ، وفترة المساء المظلمة الكئيبة تحت سقوف هذه المآوى الخاوية المجدبة .

لم يبق ثمة شك إذن فى أن أمر التثقيف والتقويم لا يعتمد على الأبنية الدراسية الفخمة بمكاتبها وأساتذتها وقاعاتها فحسب ، بل يتعدى ذلك الى وجوب ضمان الغذاء الصحى الكامل الملبى لحاجات الجسم طيلة مراحل نموه ليساعده على التفرغ للأعمال العقلية والعضلية وضمان المسكن الصحى الذى يجد فيه الطالب الجامعى مأوى أمينا لراحته واستجمامه ، وإضاءة صحية ملائمة يطالع فيها دروسه ويعنى بواجباته ، على أن يكون مسكنا بعيدا البعد كله عن الضجيج والضوضاء ومفاسد المدنية ومغرياتها الكاذبة لحياطتهم من شرور العدوى الخلقية الفاتكة .

ولقد أجمع المعنيون بشؤون الجامعة عندنا من صفوة المثقفين ورجال التربية على أن أساس التعجيل بتحقيق هذه الضرورات إنما يكون بإقامة مساكن للطلاب مستوفية للشروط الصحية والمرافق الضرورية من حمامات رشاشة ، ساخنة وباردة ، وغرف استجمام وراحة تحفل بألوان السلويات الراقية من عقلية ورياضية وأخلاقية ، وغير ذلك من كل ما يساعد على الثقافة الكاملة ويعين على صحة العقل والبدن .

وهل تحسب أن مثل هذه الحياة المفككة المضطربة تدعو الى تفاهم فكرى أو تضامن اجتماعى أو تعاون أدبى بين جموع الغرباء من طلبة الجامعة ؟ كلا لعمرى . فانها لعلى النقيض من ذلك ، إذ تزيد من مدى الفوارق الاجتماعية بين الجميع ، وتوحى بنظرية الطبقات فى بيئة العلم التى يستوى أمام فخر الانتساب إليها هؤلاء جميعا من فقراء وأغنياء ، ثم تزيد على ذلك بأن تحرم طبقة الدخل المحدود من متع الحياة البريئة وسلوياتها الطيبة ،

بل من ضرورات لا غناء لهم عنها من غذاء ودواء ، لا زال فى وسع الدولة كفالتها لهم ، كما فعلت ذلك دول غيرها من قبل .

لقد صاح بالأمس القريب مدير فاضل للدقهلية ، وأهاب بوزارة المعارف أن تنصف الطلبة الغرباء الوافدين على معاهد المنصورة ، واقترح عليها أن تبنى لهم مبنى أو مبانى تسع ألف طالب ، وأكد وقتئذ أن نفرا من رجال الأعمال على أتم أهبة للقيام بهذا العبء فى حالة عجز الوزارة عنه ، على أن يسدد الطلبة تكاليفه على مدى فترة من الزمان بما يدفعونه لقاء السكن الراقى من أجر لا يكاد يكون مذكورا .

وكان للجامعة الأزهرية فضل السبق فى إنشاء مساكن لطلبتها من الغرباء سواء فى القاهرة أم الاسكندرية أم الزقازيق أم أسيوط ، ولا زالت هذه الجامعة تساعد طلبتها هؤلاء إلى حد كبير لتحفظ لهم أجسامهم القوية التى يدينون بها للريف ، لعيشهم فى الهواء الطلق مدة سنيهم الأولى وخلال إجازاتهم الصيفية فى نهاية كل عام .

ولا ننكر أن سعادة أحمد لطفى السيد باشا قد ألح منذ خمس سنوات مضت ، فى تنفيذ مشروع مدينة الجامعة وميادينها الرياضية ، وقد وفق فعلا إلى الحصول على اعتماد لها فى عهد المرحوم أحمد عبد الوهاب باشا بمبلغ تسعين ألف جنيه تدرج فى ميزانية سنوات مالية ثلاث وقد كان هذا المبلغ يرصد فى الميزانية سنة بعد الأخرى ثم لا يلبث أن يرجع آفلا إلى الخزانة فى معظمه تقريبا إن لم يكن فى تمامه ، وإذا سألتنى عن السر أجبتك بأن علمه عند علام الغيوب .

يقول الأستاذ الدكتور محجوب ثابت فى أحد تقاريره الهامة التى يدأب على رفعها إلى ولاة الأمر فى الجامعة " إنه إن كانت مساكن الطلبة الجامعيين وتغذيتهم من الأهمية بمكان ، فيلزم تنفيذها على عجل مع مطعم للطلبة يحتم فيه أكل الغرباء ولو وجبة واحدة ظهرا أو مساء بقيمة معقولة لا تتعدى القرشين ونصف القرش لكل ما يلزم من مواد زلالية وبروتونية وفيتامينات ومواد نشوية وسكرية والموالح والسلطات والفاكهة أو حلوى مغذية . ويجب أن يعم ذلك فى المدن كالقاهرة والاسكندرية وغيرهما من المدن التى تكثر فيها معاهد التعليم ".

ويقول الدكتور الفاضل فى ناحية أخرى من تقريره فى صدد تحبيذ مشروع المدينة " ومعروف أن أمر تربية النشء ومبانى معاهده فحسب لا يكفى بل يجب إيجاد مساكن يأوى اليها هذا النشء ليستجم ويعوض ما فقده بمجهوده فى عمله اليومى عقليا بفصول الدراسة وعضليا وعسكريا بميادين الرياضة ، ليكون التثقيف قويا سليما . وإذا ما غذى هذا النشء غذاء صحيا كافيا لتعويض ما يفقده لاطراد نموه فى كل درجات التعليم من الزامى وابتدائى

وعال، فبذلك فقط يكون التعليم بل أقول التربية قائمة على أسس ودعامات صحيحة قوية تقاوم أسباب الضعف وتهيئ للجهاد الحيوى هذا النشء عقلا ونفسا وجثمانا وللدفاع عن وادى النيل المقدس".

والأستاذ الدكتور طه حسين بك فى كتابه القيم عن " مستقبل الثقافة فى مصر " يتناول حياة الطلبة الصحية والاجتماعية ، والبيئة الجامعية ، ويصور الاهمال الصحى الذى ينخر فى أجسام الطلاب والاهمال الاجتماعى الذى يطيح بأخلاقهم مدللا على التفكك فى البيئة الجامعية الذى لا يحقق شيئا من الثقافة العامة. حتى اذا فرغ من بيان أوجه النقص فى هذا كله ، اخذ يسرد أوجه الطب لها جميعا ، ومن بينها مدينة الجامعة .

وقد كتب مرة الدكتور أحمد محمد ابراهيم الأستاذ بالجامعة المصرية فى مقال له عن التعليم الجامعى فى فرنسا " ... وحدث فى سنة ١٩٢٥ أن أنشئت " مدينة الطلبة " وبها نحو خمسة عشر بناء، وتحرص الدول الأجنبية على إقامة أبنية خاصة بالطلبة الذين يدرسون فى فرنسا. وللطلبة الفرنسويين الذين يأتون من الأرياف نحو أربعة أو خمسة أبنية يسكنون بها مقابل أجور طفيفة ، وفى هذه الأبنية يتحتم مراعاة الهدوء التام والنظام ، ولهذه الأبنية مطاعم ومكتبات ، ولكل بناية مدير للاهتمام بشؤونها يعاونه فى ذلك مجلس إدارة لتنظيم شروط السكن والمعيشة . والغرض الأساسى لهذه الأبنية هو إيجاد روح التعاون بين الطلبة الغرباء والذين يفدون من مختلف الأقطار، وكذلك بين الفرنسيين الذى يحضرون من أقاليم مختلفة، فإذا ما رجع الطلبة إلى وطنهم يكون لديهم أثر باق من الحياة الجامعية " .

و بعد فماذا أقول؟ الجميع عندنا من المشتغلين بأمور الجامعة يستشعرون حاجتنا القصوى إلى إنشاء هذه المدينة، بنفس الهمة والعناية اللتين توجهان إلى إقامة تلك المعاهد الضخمة فى أفنية الجامعة الرحيبة .

إن جولة قصيرة حول جامعات العالم تنبئنا حقا بأننا لازلنا متخلفين فى أخص شؤون الروح الجامعى حين سبقنا غيرنا إلى تحقيقه ودعمه ، بمراحل بعيدة !

إن الجامعة الوحيدة التى يقال بعدم وجود مساكن لها هى جامعة لندن ولكن هل نعرف ماذا أعدت لطلبتها فى سبيل راحتهم والعناية بأجسامهم وعقولهم ؟ إن ولاة الأمر هنالك يعدون كشفا بأسماء العائلات التى تسمح للطلبة الغرباء بالسكن معها ، فضلا عن الوطنيين ، بعد تحقق الجامعة من صلاحية ذلك من الوجهين الصحية والخلقية .

وحدث ولا حرج عما أعدته بقية جامعات انجلترا واسكتلندا وسويسرا وألمانيا و إيطاليا وغيرها من مساكن ومطاعم ومشافى وعيادات وملاعب ومسابح ودور للمسرح والخيالة والسلويات الأخرى والحدائق الأريجة وغيرها مما يوفر للطالب الجامعى حياة حافلة حانئة حقا تجعله صحيح البدن سليم العقل مفتح الملكات لهضم الدراسة الجامعة العالية والعمل على الإنتاج النافع فى هدى من تعاليمها .

ولا نكران فى أن للهبات الكريمة التى يجود بها من حين الى آخر ، ذوو الأريحية والكرم المطبوع من أثرياء تلك الأمم الناهضة ، أثرا جليلا فى إقامة كثير من هذه المدن وتأسيس شتيت من مبانيها ومعالمها . و إن هذا الكرم الحاتمى العلمى ليتجلى حقا فى أروع مظهر له فى ربوع انجلترا والولايات المتحدة الأمريكية ، حتى ليكون مثلا أعلى يجب أن يترسمه أغنياء العالم طرا .

فما سبيلنا إذن إلى تحقيق هـذا الحلم الذهبى السعيد ، الذى طال انتظارنا له فى مراقد الأحلام بل فى يقظة الحقائق وصحوة الأفكار ؟

لعلنا نظلم الحكومة ظلما بينا ، وخاصة فى مثل هـذه الظروف القاسية . اذا كلفناها وحدها عبء القيام بهذا المشروع الكبير ، دون أن يشاركها شرف العمل فى سبيل إخراجه طائفة الموسرين عندنا من اجانب ووطنيين .

إن اكتتاب الأثرياء لهذا المشروع أعده عملا من أجل الأعمال الوطنية ، لناشئة هذه الأمة التى نريد لها مخلصين أن تتكمل من كل شيء ، بل لعله واجب من أقدس الواجبات القومية التى يهون عندها المنح والبذل فى غير ما تمهل ولا ونا ء .

عدوها أيها الموسرون لونا من ألوان الاكتتاب لمستشفى من المستشفيات ، أو معهدا من المعاهد أو مشروعا من المشروعات الاجتماعية الأخرى التى تعوزنا فى فترة انتقالنا من عهد الجمود الى عهد الحياة ، واذا كان للشافى غرضها فى تصحيح مريض الأبدان ، وللمعاهد العلم مقاصدها فى تثقيف عقل الأذهان ، فان لهذه المساكن والمأوى آثارها البعيدة فى تصحيح الأذهان والأبدان والأخلاق والمعنويات .

لقد حق للدكتور كارل زيمرمان أستاذ الدراسات الاجتماعية العليا فى جامعة هارفارد أن يصيح فى أحد مؤلفاته قائلا ، ويصيح معه كل متصف ، " أن الأمة التى تعتمد على ترك الحكومة تعالج وحدها أخطر ما يعترض المجتمع من مشكلات ، لهى أمة حكمت على نفسها بالجمود والعقم وأثبتت أنها عجزت عن فهم معانى التضامن الاجتماعى ، وهذا يبشر بأن مقومات النهوض فيها تحدل الى موت بطيء مندرج " .

أما واجب الحكومة ، فهو البدء جديا فى رصد ما يلزم من مال لهذه المؤسسة الجديدة ، وتقسيمه على سنتين أو أكثر ، كما لو كانت مشروعا من مشاريع السنوات ، بدل أن تظل مكتوفة الأيادى إلى وقت توافر المال .

وأرى ، ويرى معى كثير من رجال الجامعة ، أنه اذا أعوزتنا الآن تكاليف البناء والإنشاء فلا أقل من استئجار بناية مناسبة من مبانى الأحياء الراقية المجاورة و إعدادها بما يلزم من لوازم السكن الكامل ، ثم تأجيرها بأجور هينة لطبقة ذوى الدخل المحدود من طلبة الجامعة ، فنستنقذهم من بيئة ، مبانيها كثيرة خالية ، ونوفر لهم لونا من الحياة الاجتماعية أرقى وأكمل .

صلاح الدين الشريف المحامى